السلطان عبد الحميد

(تابع ما قبله)

(١) عبد الحميد في حداثته

عاد الاستاذ فبيري الى الكلام عن السلطان عبد الحميد وهو اعرف الاوربيين به فنشر عنهُ مقالة مسهبة في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية قال فيها التقيت به اول مرة وهو فتىً في السادسة عشرة من عمرهِ وكنت اعلّم اخته السلطانة فاطمة اللغة الفرنسوية وكان اسمهُ حينئذٍ حميد افندي وكان كثير التردد على سراي زوجها راغب باشا بن رشيد باشا ولذلك لا ازال اتذكرهُ جيداً من ذلك الحين فقد كان نحيفاً اصفر الوجه وكان يضع يدهُ على ركبتي وينظر في وجهي بعينيهِ السوداوين وكأنهُ كان يود ان يلتقط كل كلمة فرنسوية التفظ بها ولكني لم اعرف اطوارهُ الاَّ بعد حين فقد يلتفي عنهُ انهُ كان يتصرف حينئذٍ تصرف الجواسيس

وكان في حداثتهِ مكروهاً لا يحب احداً ولا يحبهُ احد يهمل دروسهُ ويفضل عليها الجولان في منازل الحريم والوقوف على ما يقال فيها من النمائم وما يجري من الدسائس فصار ذهنهُ مخزناً لكل انواع التخرُّصات والوشايات ولذلك قرَّبتهُ والدة السلطان عبد العزيز اليها وهي مشهورة بتعصبها واعتقادها بالسحر فمال من ذلك الحين الى الاعتقاد بالسحر والتنجيم وكل ما هو خارق الطبيعة وكان لاعتقادهِ هذا شأن كبير في تدبير امور السلطنة وهو مما كان يدهش الاوربيين لانهم لا يعلمون سببهُ

ولجهلهِ العلوم كان يكرهها فبقي غير عارف حتى بلسانهِ التركي وكنت اذا حدثتهُ واستعملت عبارة بليغة يوفقني ويقول لي انهم هذه العبارة الفصيحة كبني باللغة العامية . وغنيٌّ عن البيان انهُ كان يجهل التاريخ والجغرافية وكل العلوم والفنون ولكنه كان بارعاً بركوب الخيل وكان يسهل عليهِ ان يذلل اشد الخيل جموحاً واصعبها مراساً حتى بعد ان ضعف جسمهُ

ولما رأى ابوهُ انهُ لا يعنى بغير الركب والصيد والاصغاء الى قصص النساء لم يعد يلتفت اليهِ

وكان من صغرهِ متقصداً شديد الحرص . كان راتبهُ الشهري الف ليرة فكان ينفق منها على سرايهِ ويتقصد توفير منها سبعين الف ليرة قبل ان رقي الى سدَّة الملك

واشتهر ايضاً من صغرهِ بالحذر وسوء الظن بالناس وكان يحسب دائماً ان الاعداء يحيطون بهِ من كل جانب وانهم يتعبون لهُ الفخاخ ويدسون الدسائس . فكان يضطرب ويرتعد من

كل صوت يفاجئه . وكنت كلما مشيت معه في حديقة قصره ورأينا احداً بغتة ينبغت من رؤيته ويتزعج فيزعجني معه . وكان يغير مكان منامه حتى لا يعلم احد اين ينام وينهض في الصباح قلقاً متعباً مما يشاهده من الاحلام ولا ينشرح الا بعد ان يستحم

ولقد عطف عليّ اكثر مما عطف على غيري من الاوربيين ولم يقيد حريتي في شيء ومع ذلك لم اكن اثقه لعلمي انه لا يثبت على حال واحدة . وقد اراد في اول الامر ان يبقيني في خدمته فاشار الى ذلك ووعدني بالاموال والرتب وكان في الامكان ان يجعلني سفيراً او وزيراً ولكن لما تجلّى طبعه لي لم تبقَ لي رغبة في خدمته وفضلت ان ابقى عبداً عنده واحافظ على وده . انتهى باختصار

هذا ولقد كان الاستاذ فبيري من اشد الاوربيين مدحاً لعبد الحميد واعجاباً بذكائه واهتمامه بترقية البلاد فكيف تغاضى حينئذٍ عن الاخلاق التي وصفه بها الآن . ان من يسكت عن امر يجهله معذور ومن مدح امرءاً بناء على مدح الناس له او على ما ينسب اليه من مكارم الاخلاق معذور ايضاً ولو كان المدح كاذباً والنسبة في غير محلها ولكن ما عذر من يخفي الحقائق قصداً او يلبسها غير لباسها حتى يخدع بها من لا يعلمها . ولقد قام غير فبيري فكتبوا وكشفوا الغوامض واظهروا الحقائق مثل جورج دوريس ابن ادوسيدس باشا الذي اشرنا اليه في الجزء الماضي ومثل المرحوم ابرهيم بك المويلحي في كتاب «ما هنالك» ولكن مدائح مثل فبيري وغيره من الكتّاب الاوربيين الذين لا يشعر منهم التزلّف مثل الكتّاب العثمانيين اعمت الابصار وخشّت على البصائر فبقي الناس في حيرة واتهموا بالغرض والعدوان كل من جاهر بالحق . ومرّت الاعوام والشر يتفاقم حتى كاد يودي بالدولة والامة

ولو انصف الكتّاب وتحرّوا بعض الصدق في كل ما يكتبون لزال من هذا العالم نصف ما فيه من الشرور والمفاسد ولرأيت الناس غير الناس . ولكن ما دام هذا يخفي الحقائق وذاك ينشر الاباطيل تبقى سوق الشرور رائجة ويرتقي الناس من جهة ويحطون من اخرى حتى تمر القرون وهم حيث هم او احط اخلاقاً

وما دام الكتّاب العثمانيون قد جرّبوا هذه الخطة الخرقاء واختبروا ضررها فخليق بهم ان يكفّوا عنها ويجتنبوا كل مدح واطراء ولا يتركوا هفوة لحاكم مهما كانت منزلته الا ذكروها له وعبّروه بها لكي يرجع عنها ويصلح ما افسد . وليعلم الذين يسترون عيوب الحكام ويبدلون ذمهم بالمدح ولومهم بالاطراء انهم يجنون على بلادهم جناية لا تغتفر وليعتبروا بما جرّ عبد الحميد على بلاده لانه كان دائماً محفوفاً بالمتزلفين المتملقين الذين يثنون بمدحه وعيونهم ترى سيئاته

(٢) السلطنة في عهده

ذكرنا في الجزء الماضي خلاصة تاريخ السلطان عبد الحميد ونريد الآن ان نذكر خلاصة تاريخ السلطنة العثمانية في عهده الى ان خلع موجزين الكلام ومقتصرين على الامور الرئيسية فنقول

لما ولي عرش الملك اقام في سراي طوله بفجه ثم لما نشبت الحرب الروسية العثمانية انتقل الى يلدز وهي اكمة تشرف على البسفور وبنى فيها مباني كثيرة واحاطها بسور منيع وبنى سوراً آخر حول البناء الذي يسكنه هو وحرمه واولاده سمكه ١٢ قدماً وله ابواب متينة من الحديد واستخدم الوفاً من الخدم والحشم تبلغ رواتبهم ٣٢ الف جنيه في الشهر

وكانت السلطنة حينما تولى في حالة الافلاس والثورة - كانت خزينتها فارغة وديونها متراكمة وقد شق عصا الطاعة اهالي البوسنه والهرسك والبلغار ونادت السرب والجبل الاسود بالحرب على الدولة فاخمدت ثورة السرب بيد من حديد وارتكبت الفظائع في البلغار وصورت صور الناس وهم يمثل بهم ونشرت في اوربا فكان لها اسوأ وقع في النفوس . وقام غلادستون ونشر رسالته المشهورة في الفظائع البلغارية فاوجس السلطان خيفة واسند الوزارة الى مدحت باشا واستشاره في الامر فقال له لا ينجي السلطنة من الدمار ويكبت اوربا الا الدستور فأعلن الدستور اول مرة في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٧٦ وانتخب النواب وابدوا من الحكمة ما جعل محبي البلاد العثمانية يرجون ان الحكومة الدستورية سترفعها الى اعلى ذرى المجد لكن الدستور لم يكن من مذهب السلطان فحل مجلس المبعوثان في ٥ فبراير سنة ١٨٧٧ واوقف العمل بالدستور وعزل مدحت باشا من الوزارة

وتفاقمت الخطوب في البلقان وطلبت روسيا من دول اوربا ان يساعدنها على جعل الباب العالي يصلح احوال وعقد مؤتمر في الاستانة لهذه الغاية اقرّ على امور رفض السلطان العمل بها فاعلنت روسيا الحرب على تركيا في ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ وكان السلطان يعتقد ان انكلترا تساعده على محاربة روسيا ولقد كانت الحكومة الانكليزية ميالة الى ذلك ولكنها لم تقدم عليه خوفاً من شعبها لان رسالة غلادستون كانت قد اثرت فيه تأثيراً شديداً

واشتركت رومانيا مع روسيا وطلبت استقلالها ودارت رحى الحرب وكادت الجنود الروسية تبلغ الاستانة بعد معارك تشيب الولدان واعمال تخلد المجد للجنود العثمانية والعار على بعض القوّاد الذين كانوا يديرون حركاتهم من الاستانة . واخيراً طلبت تركيا الصلح وأمضيت معاهدة سان ستفانو بين روسيا وتركيا في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ فاعترضت عليها انكلترا وطلبت عقد مؤتمر برلين

فأُبدلت بمعاهدة برلين التي أُمضيت في ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ وبموجبها استردّت روسيا بساراپيا واخذت القارص وباطوم واردهان واستقلت الصرب ورومانيا والجبل الاسود وأُعطيت البوسنه والهرسك للنمسا لتحتلها وتدير شؤونها وجعل جانب من البلغار امارة ذات استقلال اداري واعطي جانب من تساليا لليونان . ويرجح بعض العارفين ان معاهدة برلين جاءت اشد وطأة على تركيا من معاهدة سان ستفانو لانها افقدتها بلاداً مساحتها ١٣٨٠٠٠ ميل وعدد سكانها ١٢ مليوناً من النفوس ولم يبقَ لها من املاكها في اوربا الا ثلث ما كان لها ونصف ما كان فيه من السكان

وابتدأت القلاقل في ارمينية سنة ١٨٨٣ لأن الارمن كانوا يحسبون ان انكلترا تنظر في اصلاح حالهم حسب معاهدة برلين فلم تفعل وأخمدت ثورتهم بالعنف . وثار اهالي كريت مما كان يحلّ بهم من جور الحكام وثقل الضرائب فاخمدت ثورتهم بالعنف ايضاً عوضاً عن النظر في شكاويهم . وثار الارمن سنة ١٨٨٨ وطلبوا استقلالهم فأُخمدت ثورتهم بالقتل والتخريب . وبدت ملائم الثورة في اليمن سنة ١٨٩١ ووقع بسببها التنافر بين الباب العالي وبين انكلترا فصادق روسيا ولجأ بعض الارمن الى اوربا يستنهضون الرأي العام فيها ويعددون عيوب الحكم الحميدي فشدّد السلطان الوطأة على بلادهم واثار الاكراد عليهم فذبحوهم وخربوا قراهم وقادوا في القظائع . وقامت الجرائد الانكليزية تحث دول اوربا على خلع السلطان فخاف وعزم على الهرب من الاستانة واستدعى وزراءه يستشيرهم في الامر وامر الفتح عز الدين ان يكون مستعداً ليمضي به الى اودسا فاشار عليه احد وزرائه ان يستدعي سفير المانيا ويستشيره في الامر . ويقال انهُ ارسل اليه عزت العابد وكان لقبهُ عزت بك وبقي مدة غيابه يمشي في الغرفة التي كان فيها ذهاباً وايباً قلق البال مشتت الافكار وقد وضع في جيوبه ومنطقته مقداراً وافراً من الاوراق المالية واثمن ما عنده من الحلى . ثم عاد عزت بك من عند السفير وقال لهُ ان امبراطور الالمان يعضدهُ ولا يدع احداً يعتدي عليه او يوقع به مكروهاً . فلما سمع هذا الكلام ابرقت اسرّتهُ وتغيرت اطواره وحسبها منّة لعزت عليه . ويقال انهُ اضطرّ ان يرشي الجرائد الاوربية بمئتي الف جنيه لتخفي عن ذكر المذابح الارمنية وان يوزع على عباد الوتب والياشين ٦٤٠ نيشاناً

وعاد اهالي كريت الى الثورة سنة ١٨٩٦ وانتصرت ثم اليونان في السنة التالية فدارت الدائرة عليها . وقام بعض الفرنسويين يطالبون الدولة بثلاثة ملايين من الجنيهات عن انشاء ارصفة سلانيك وشدّدت الحكومة الفرنسوية ازرها واحتلت جزيرة متيلين (مدلله) واستولت

على جمارکیا فاستعان السلطان بصديقه امبراطور المانيا فاشار وزير الخارجية الالمانية على سفير تركيا ان توفي الدولة ما يطلب منها . فاوفت جانباً من المطلوب ورهنت دخل الجمارك لايفاء الباقي . ولما استحق القسط الثاني سنة ١٩٠٥ ولم يوف ارسلت فرنسا اسطولها ثانية الى جزيرة متيلين

وتعددت الثورات في مكدونيا وسلانيك ومنستير وادرنه سنة ١٩٠٣ من جور الحكام وقسوتهم وانتهاكهم للحرم فلا الاموال ولا الدماء ولا الاعراض كانت بأمن لحظة واحدة حتى اضطر امبراطور النمسا وقيصر روسيا ان يطلبا تعيين والٍ خاص لمكدونيا تعينه تركيا ومعه مأموران احدهما تعينه النمسا والآخر تعينه روسيا يشاركان الوالي في ادارة شؤون البلاد وتنظيم الجندرمة بادارة قائد ايطالي وضباط يختارون من جنود الدول الاوربية . وحسبا ان ذلك يذهب بما يقاسيه السكان من الظلم والقهر . وتردد السلطان في قبول هذا الطلب حيناً اول الامر ثم قبل ان يجرب سنتين ثم طلب ان تطال هذه المدة قبل انقضائها . لكن حال البلاد لم تصلح . ورأت روسيا والنمسا ان احوال تلك البلاد لا تستقيم ما دامت ماليتها في يد تركيا لان جباة الاموال ينهبون الفلاحين ويبتزون اموالهم بكل طريقة فيضطرونهم الى الثورة فطلبت دول اوربا ان تعين مراقباً اوربياً لجمع الاموال الاميرية وان تلك الاموال تنفق في مصالح مكدونيا نفسها . ثم ان الوالي استخف بالمأمورين ولم يعمل برأيهما فاحتجت الدول على ذلك وعزمت ان ترسل اساطيلها فتستولي على بعض الجمارك وتحصر بعض الموانئ وابى امبراطور المانيا ان يشاركها في ذلك . ولما رأى السلطان ان الاساطيل الاوربية اجتمعت في بروس تحت امرة الاميرال ربر الفسوي اسرع الى مذاكرة السفراء لكنه قال لهم انهم ان اجبروه على العمل برأيهم فهو غير مسؤول عما ينتج من ذلك من النتائج الوخيمة في كل الممالك العثمانية كانه يهددهم بذبح المسيحيين اما هم فلم يعبأوا بهذا التهديد واضطروه الى التسليم بطلبهم ولكن احوال مكدونيا لم تصلح وتفاقمت الخطوب في السلطنة كلها وهو يكب اوربا بما يعطي من الامتيازات للالمان فتحرك جشع محبي الكسب من سائر الاوربيين حتى يشغلوا بالالمان فيستفيدوا مثلهم . فلم نكن نرى مقالة تحبر على نوع الانسان يظهر بها معايب الحكم الحميدي ويلوم الدول ذات الشأن لتغاضيها عنه حتى نرى مقالات كتاب كثيرين يلومون دولهم لانها لا تحاسن السلطان كما تحاسنه المانيا فتأخذ منه الامتيازات وتعود تجارتها الى الرواج في بلاده

ولما قام احرار العثمانيين يطلبون اصلاح حكومة بلادهم واضطروا ان يهاجروا منها لم يجدوا عضداً في اوربا كلها الا من رجال قلائل حتى علمتهم المحن انه لا يحك جلد الانسان

الا ظفره ولكن الامة المرهقة كالامة العثمانية التي اقيم بعضها جواسيس على البعض الاخر وعامتها لا علم ولا ارشاد وقد مزقتها التحزبات الجنسية والدينية لم يكن يرجى لها ان تنهض نهضة فعالة للمطالبة بحقوقها المهضومة ولو لم يتفق لبعض الضباط ان اجتمعوا على هذا الغرض الحميد وسعوا اليه بمهارة نادرة المثال ولولا حبن عبد الحميد وغيرة رجاله من نجاح عزت باشا العابد — لولا ذلك كله لما أُعلن الدستور ولا خلع عبد الحميد

واذا جمع تاريخ عبد الحميد من اول نشأته الى ان تحضره منيته وفصلت اعماله فيه كان عبرة من اكبر عبر الدهر

صادرات الممالك ووارداتها

اوردنا في الجدول التالي قيمة صادرات الممالك الكبيرة ووارداتها في السنتين الماضيتين وهي بملايين الجنيهات الانكليزية

	الصادرات		الواردات	
	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٧	١٩٠٨
بريطانيا العظمى	٤٢٦	٣٧٧	٥٥٤	٥١٣
المانيا	٣٣٧	٣٣٢	٤٣٠	٤٠٩
الولايات المتحدة	٣٩٥	٣٦٠	٢٩٦	٢٣٣
فرنسا	٢٢٤	٢١١	٢٤٩	٢٤٤
الهند والمجر	١٠٢	٠٩٧	١٠٤	١٠٥
الهند الانكليزية	١٢٣	٠٩٧	٠٨٦	٠٩١
ايطاليا	٠٧٨	٠٧٤	١٠٥	١٢١
كندا	٠٤٩	٠٥١	٠٧٥	٠٥٨
جنوبي افريقية البريطانية	٠٤٨	٠٤٥	٠٢٧	٠٢٥
سويسرا	٠٤٦	٠٤١	٠٦٧	٠٦٣
اليابان	٠٤٤	٠٣٨	٠٥٠	٠٤٤
اسبانيا	٠٣٧	٠٣٦	٠٣٨	٠٣٨
مصر	٠٢٩	٠٢٣	٠٢٧	٠٢٦